ويلك آمن . . . !

الأســـتاذ محمود محمد شاكر

أيام من الدهر حائرة فى أودية الزمن ، وســاعات تخلع المصائب وتلبسها بين الثانية والثانية ، ورعب مظلم خيّم على الأرض فلا تضيئه إلا شقائق النار وهى تفرى الجو ذاهبة وآيبة، وحيرة سابحة فيها عقول البشر لا تدع قراراً لفكر ولا خيال ، وسهام نافذة من البلايا تفتق نسج النفس الإنسانية فتقاً رهيباً يتمايا على الراقع والمصلح . . . فيا له من بلاء مطبق على العالم إطباق اليوم الصائف يسد بحره منافذ الأنفاس

ما الحياة ؟ ما الإنسان ؟ ما العقل ؟ ما الحضارة ؟ إلى أين نسير ؟ كيف نعمل ؟ لماذا نعيش ؟ فيم نتعب ؟ تبًّا لكل هذه الضلالات الداجية التى لا يبرق فيها نجم واحد يقول للانسان : اتبعنى ، سوف تهتدى ! !

هذه هى الحضارة الأوربية الحديثة قد انتهت بالناس إلى خلق هذا الإشكال الدائم الذى لا يحل ، وساقت الناس إلى مرتمى من الشك وبىء ، كلما ازدادوه غذاء زادهم بلاء ، فلا ينتهى من ينتهى إلا إلى هلكة تدع فكرة الحياة خرافة عظيمة قد اتخذت لها أسلوباً تتجلى فيه ، فكان أبلغ أسلوب وأفظع أسلوب ، هذا الإنسان الذى يحمل من رأسه قنبلة حشوها المادة المتفجرة التى تهلكه وتهلك ما يطيف به أو يقاربه ، فلا هو ينتفع بنفسه ، ولا ينتفع العالم به

لو سئل إنسان هذا القرن : ما أنت ؟ لقال : أنا اللعنة الملعونة التى تشأم نفسها وتشأم من يعترض انصبابها وسيلها . أنا الناب الذى ينقع فى الإنسانية سمه حتى تبرد حياتها فى عضته . أنا الهالك المهلك ، هذه حياتى ، وهذا عقلى ، وهذه حضارتى ، ومن أجل هذا خلقت ، وفى سبيله أعيش ، وعلى قضائه أعمل ... ! !

ولو نشر اليوم فيلسوف من محبى الحكمة والعاملين عليها الذين أفنوا أعمارهم فى طلب الخير والفضيلة والحق والجمال ، وجعلوا عملهم هداية الإنسان إلى أسبابها وسلكوا له سبلها ، ثم نظر إلى هذه الحقبة من عمر الإنسانية فما تراه قائلاً فى صفة الإنسان وما فيه من العون على درك هذه الحقائق ، والتجلى بها فى حياته ؟ أم تراه يعرف الصورة وينكر المعنى ؟

المدنية الأوربية الحديثة هى التى استطاعت أن تنفذ بالعقل فى ضمير الحياة تستنبط منه ناموس الحياة التى تدب على الأرض ومع ذلك فهى التى سلبت هذا العقل قدرته على الخضوع للروح لتمده بالنور المشرق الذى يستضىء به فى رفع الإنسانية درجة بعد درجة إلى مراتب الملائكة — أى إلى مرتبة الروحانية الصافية التى تنهل أضواؤها على النفس والقلب والروح ، فتروى من فيضها ، وترث من ذلك نوراً ورحمة وسكينة ، وتنبت غرسها الإلهى الذى يجنيه الإنسان هداية وعدلاً وسعادة ، فتتضاعف به الحياة حتى يقوى الخير فيها ويضوى الشر

لقد أخفقت هذه المدنية فى سعيها لخير الإنسان ، وأثبتت بكل دليل أنها مهما تكن أحسنت إلى الإنسانية فلم تحسن مرة واحدة أن تضبط توازع النفس ، وتردها إلى الطريق الواحد الذى ينبغى أن تصدر عنه ، حتى تكون كل أعمالها نقية طاهرة متشابهة . ذلك الطريق هو طريق الروح الذى لا يتم لعمل تمام ولا يظفر بخلود أو بقاء ، إلا أن يكون فيه مس الروح وطهارة الروح ، وقدس الروح

لا يمكن نقلها إلى سنتريس، فأنا معها إلى أن يقضى القَدَر بما يشاء

وأقسى ما أعانيه هو الفزع الذى يقاسيه جيرانى حين تولول صفّارة الإنذار بثارة جويّة فى أعقاب الليل ، فهم ينزعجون ويتواصَون بالنزول إلى السراديب ليأمنوا شر الويل ، فأنزعج لانزعاجهم لحظة ثم أسلم جفونى إلى النوم العميق

الحياة ليست غالية جدًّا ، يا جيراني ، فلا تخافوا ولا تجزعوا فأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى أعماق السراديب !

وما قيمة الحياة وهى دُنيا بحق ؟

ألم نشهد فيها غدر الصديق بالصديق ، ونوم الحليف عن نصرة الحليف ؟

لن أقبل النزول إلى السرداب ولو سقطت السماء فوق الأرض ! ولو كان أبنائى فى مثل عزيمتى لأبيت عليهم الرحيل إلى مرابع السلامة فى سنتريس

وما الذى فاتنا من نعيم الحياة أو بؤس الحياة حتى نحرص عليه ؟

أنا باقٍ فى دارى على حدود الصحراء إلى أن ينفد زاد الموت ، والمستميت لا يموت .

زكى مبارك

أطلقت هـذه المدنية فى الدم الإنسانى كل ذئاب الشر والرذيلة ، فخرجت من مكامنها جائعة قد سلبها الجوع كل إرادة تحملها على بعض الورع الذى يكف منها ، فعاثت فى إنسانية الإنسان حتى جُنّ ، وتنزى فى الأرض وحشاً يجعل شريعته المفدسة تنبع أحكامها من معدته، ومن أحكام هذه المعدة ومطالبها، وكذلك انقلب النظام الاجتماعى فى العالم من نظام روحى عقلى سام ، إلى نظام اقتصادى تجارى ضار ، الآكل والمأكول فيه سواء . لأن النية انعقدت فى كليهما على الافتراس ، وما فرق بينهما إلا فرق القوة التى أعدت هذا للظفر ، وأسلمت ذلك إلى العجز ، فدفعت به إلى رحى تدور بأسباب من الطغيان والفجور

وما هى شريعة المعدة فى هذه المدنية الاقتصادية التجارية ؟ هى شريعة السوق التى لا تعرف قيمة الشىء إلا فى ميزان من الطلب . فما طُلب فهو الجيد ، وما عُمّىَ على الطالب فهو الرديء الذى لا قيمة له ، وكل شىء قائم فى جوهره على النزاع الذى لا تسامح فيه ، والأمر كله للغلبة : غلبة الأقوى ، لا غلبة الأعدل ، غلبة الحيلة لا غلبة الصدق ، غلبة البراعة لا غلبة الحق

فهذه الشريعة هى شريعة إعزاز القوىّ ، لأن القوة تسوّغه أن يتسلط ، وإذلال الضعيف ، لأن الضعف تهالك به أن يتحكم ، وليس بين هذين معدلة ولا نصفة ، وليس أحدهما من الآخر إلا كالثعبان من العصفور إذا عرض له ، فسلط عليه الرعب من عينيه ، فينتفض فى قبضة أشمّهما المفترسة المسمومة حتى يبرد دمه فلا يستطيع حركة ، ولا ينتفش بدنه بذعاء من الحياة . هى الشريعة التى تجعل إنسانها القوى مقبرة لإنسانها الضعيف ، فالقوى أبداً آكل قد أرمّت فى نفسه تلك الجيف التى انتهشها وألقى بها فى معدته ، فتجيفت وتعفنت ، وتصاعدت أرواحها المنتنة فى حياته ، فجعلته متسرّعاً نفّاذاً كأنما يريد أن يهرب بنفسه من نفسه التى لا يطيق جوها ، لأنه جو خانق ، تطوف فيه أشباح الفرائس المسكينة التى بطشت بها أنيابه ومخالبه

هذه الحضارة الفاجرة التى تدنست روحها بالرمم التى شعفت أن تقاوم القوة ، لن يستطيع إلا أن تفسد العالم وتدنسه كما تدنست ؛ فإنه محال أن تكون الشريعة مدنّسة نجسة ، وتأتى الناس بخير طاهر مبارك يغسل أدران الإنسانية التى تتجمع عليها يوماً بعد يوم ، ولا أن تخرج نفس الإنسان فيها مع الفجر ندية مشرقة رفافة تستقبل بفضائلها أعمال نهارها

إن شريعة إعزاز القوىّ وإعلاء الأقوى ، وإذلال الضعيف وإسقاط الأضعف ، هى الشريعة الحيوانية التى لم تعل إلا بإذلال الروح والعقل وإسقاطهما ونبذهما ، هى شريعة البغى والعدوان على الروح بالروح الشيطانية ، وعلى العقل بالعقل المتمرد ، وكلما استحكم أمرها كانت الإنسانية ذاهبة إلى نبع نجس تنغمس فيه لتصدر عنه أقوى مما وردت ـ أى أنجس مما وردت

إن الكون لا يصلح إلا على معنى الأقوى والأضعف . هذا حقّ لا يمارى فيه إلا مكابرٌ أو مبطل أو أحمق . ولكن يبقى ذلك العمل الإنسانىّ الذى يثبت للانسان معانى النبل المتحدرة فى روحه من نبل النور الأزلىّ الذى بث الحياة بعثاً فى نفسه وفى أعماله ، وبهذا العمل وحده يعرف الإنسان معنى السعادة فى البراء والضراء ، وفيما أرضى وما أسخط ، وتكون حاله فى الحالين واحدة ، وذلك بأن تتسع روحه بالواجب الاجتماعى الروحى الذى يتراحب بإنسانيته فى الكون كله ، فتقع اللذة منها موقع الألم ، وينزل الألم فى منزل اللذة ، وتمسح النظرة السامية عن الوجود كل الغبار الأرضى الذى يغطى محاسن الحياة وتنير الكلمة ظلمة النفس : الحمد لله فيما سر وما ساء

والعمل الإنسانى المستمد روحه من الجزاء الإلهى فى الإنسان هو العدل والمساواة ، وقد جعلت الحضارة الحديثة معنى العدل والمساواة صدقة يتصدق بها أغنياء قوم على فقرائهم ، وأقوياؤهم على ضعفائهم ، لا على معنى الصدقة فى إخلاصها لله ثم للانسانية ولكن على معنى التخفف من تعب الغنى وتعب القوة

أما حقيقة العدل والمساواة ، فهى عمل الإنسان الأقوى فى رفع الإنسان الأضعف إلى مرتبته، فلا يزال هو يرتفع بقوته، ولا يزال الضعيف يسمو معه لأنه معقود الأواصر به . وإذا كان ذلك هو القاعدة فالاجتماع كله سام ذاهب إلى السمو ، ولا يكون فيه معنى للطبقات إلا على معنى التدرج ، ولا يكون التدرج إلا على تماسك وتواصل ، وليس تماسك ولا تواصل إلا على حرص الأعلى على التعلق بالأدنى ، وكذلك لا يرتفع شىء من المجتمع لأنه أعطى القدرة على الارتفاع ، ولا يسقط الشىء الآخر منه لأنه لم يجد ما يتعلق إذ حرم هذه القدرة أو زويت عنه أسبابها

وقد جعل الإسلام من أول أمره غرضاً للمسلم لا يرضى منه غيره ، ورد معنى الإسلام إليه ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقاعدة وقال للناس : اعملوا : فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

أزر بعض . والإيمان لا يعرف الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والمراتب الحيوانية التي طبعتها الطبيعة على تنازع البقاء وغلبة الأقوى ، بل هو معنى يوحد الناس حتى ليس لأحد فضل على أحد إلا بقدر منه ، وحتى إن العبد المملوك العاجز ليرفعه إيمانه على من ملكه واستبد به واعتقد رقبته بماله ، إذا لم يكن هذا المالك قد استحق بإيمانه مرتبة هذا العبد

وفي بعض الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء هداية إلى هذا الأصل ، فقد روى عن المعرور بن سويد أنه قال : لقيت أبا ذرّ بالربذة ، وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك فقال : إني ساببتُ رجلاً، فعيّرته بأمه ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذرّ ، أعيّرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ! ! إخوانكم خوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم

ولا ينتهي عجب متعجب من بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وكيف ينزل كلامه تنزيلاً في معانيه ، تدور بها دورة دائمة لا تنتهي على نظام ثابت لا يتبدل . فقدّم صلى الله عليه وسلم الأخوّة بين المؤمنين لأنها هي الأصل الذي لا يتم معنى الإيمان ولا معنى الإنسانية إلا به ، وردّ على هذه الأخوة ما يوجبه المجتمع من مراتب الناس على الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، ألا وهي الخدمة التي يقوم بها النظام الاجتماعي فقال : « إخوانكم خولكم » ولم يقل : « خوَلكم إخوانكم » ، هذا مع أن أصل الخطاب إلى أبي ذر يتوجه إلى مقصود بذاته ، وهو خادمه أو غلامه الذي سبّه ، فكان أول ما يسبق إلى اللسان ، وأقرب ما يسرع إليه الوهم ، أن يعين خادمه بالابتداء

ثم انظر كيف قال : « جعلهم الله تحت أيديكم » ، « فمن كان أخوه تحت يده » ؟ وكيف حرّر الإنسان من رقبة العبودية القابضة على عنقه ؛ فجعله تحت يده يستظلّ ويتحرك في هذا الظل ، ولم يجعله في يده يتصرف فيه ويقبض عليه ويستذله ، فإن شاء حطمته قبضتُه . ثم درَج على هذا الأسلوب البليغ حرفاً بعد حرف حتى قال : « فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وذلك زكاة القوة التي بها ملك المالك ، واستخدم المستخدم . فإذ كان المؤمن قد قوى على تكليف ضعيفه أن يعمل ، فهو أقوى على أن يشاركه إذا عجز أو قعد به الضعف الذي أصاره إلى أن يرضى أن يخدم نفسه من كان أعلى يداً وأقوى قوة

فهذه هي شريعة الروح الطاهرة التي تتعطر من نواحيها برائحة جنة الخلد ؛ فانظر ما بينها وبين شرائع المدة التي جعلت أحشاءها مقابر للضعفاء تأكل منهم لتتسع بمعنى الجريمة الحيوانية ، وتنقبض عن معنى الرحمة الإنسانية الإلهية

فهل يمكن أن يتطهر العالم فيما يستقبل من أيامه على أساس هذا الهدْى النوراني الذي جعل النظام الاجتماعي سموًّا بالإنسان كله على مراتبه كلها ؟ هل يمكن أن يفهم العالم حقيقة هذا التطهير التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا قدّست — أي طهّرت — أمةٌ لا يؤخذُ لضعيفها من قويها » ؟

ويلك آمن ... ! إن وعد الله حق

محمود محمد شاكر

صـــدر حديثا كتاب :

من الأدب الفرنسي

قصائد وأقاصيص

لأمراء الشعر والنثر

لامرتين وهوجو وشاتوبريان وجي دي موباسان

بقلم

أحمد حسن الزيات

يقع في زهاء ٣٠٠ صفحة وثمنه ١٠ قرشا ، ويطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة .